

كتب بالإنكليزية

تفتيش جنين:

روايات شهود عيان عن

الغزو الإسرائيلي سنة 2002*

Searching Jenin: Eyewitness Accounts of the Israeli Invasion 2002

Ramzy Baroud, ed., with a preface by Noam Chomsky

Seattle: Cune Press, 2003. 287 pages. \$17.95 paper.

كتاب تصعب قراءته - وهذا ما يجعله مهماً. فهذه الروايات من شهود عيان على العمليات الإسرائيلية في مخيم جنين للاجئين خلال عملية السور الواقى بين 3 و19 نيسان/أبريل 2002، تقدم عدداً كثيراً من البيانات الأولية، ومزیداً من الإثباتات، في شأن جرائم الحرب الإسرائيلية، ووصفاً للجانب الإنساني من الصراع الذي كُتب عنه الكثير، لكن من دون فهم معمق لتفصيلات الحياة اليومية تحت الاحتلال بشكل يثير الدهشة. إن البدء بفهم ما حدث في جنين يتطلب قراءة هذه الشهادات بكل تفصيلاتها المخيفة. وسيكون كتاباً مفيداً لكل مهتم بالصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، وللمواطنين الأميركيين الراغبين في معرفة ما الذي تدعمه أموال الضرائب التي يدفعونها، وللمهتمين بانتهاكات حقوق الإنسان.

محرر الكتاب، رمزي بارود، هو مؤسس مجلة "بالستين كرونكل" (Palestine Chronicle) التي تنشر على الإنترنت. وقد عمل مع الصحافيين الفلسطينيين على جمع الشهادات الواردة في كتابه "تفتيش جنين"، بغية الكشف عن "الحياة والعاطفة التي تكمن خلف أرقام الإصابات" (ص 22). هناك كثير من الكتب المماثلة التي صدرت بالعربية، لكن هذا هو أول مجموعة من نوعها باللغة الإنكليزية.

تفصل كل شهادة واردة في الكتاب الطريقة التي نفذ بها الإسرائيليون عملياتهم العسكرية في مخيم جنين خلال هجوم نيسان/أبريل، وكيف جرفوا البيوت على رؤوس أصحابها، والكارثة الإنسانية التي خلفوها وراءهم. وتوفر المقابلات أيضاً قصصاً مؤثرة عن ردات فعل الضحايا، الشخصية والعاطفية. ونقرأ في نحو 150 صفحة من شهادات المقيمين بجنين روايات موجزة، لكنها قوية ومحزنة، عن كيف تمكنوا من

* المصدر: Journal of Palestine Studies, vol. xxxiii, no.1 (Fall 2003), pp. 102-104.

البقاء أحياء في أثناء الغزو، وكيف لم يتمكن كثير غيرهم من ذلك. ويتحدث كثيرون من المقيمين عن الندوب النفسية التي لا يزالون يعانونها، ويشيرون إلى الصعوبة التي يواجهونها في إيصال هول الألم الذي ينتابهم.

يتميز معظم المقابلات بالوضوح والبساطة والسرور العاطفي، لكن هناك أيضاً عنصر خرافي في بعض القصص. على سبيل المثال: جرى إعدام زوج سناء السعدي الشاب، عبد الكريم، وجارهما وضّاح الشلبي، خارج منزليهما. وتروي سناء كيف أن ابن وضّاح الرضيع "بدأ يبكي ولفظ كلمته الأولى 'بابا، بابا'. فحملته أمه قائلة: 'ألم يكن في وسعك قولها قبل أن يموت؟'" (ص 75). لقد كان تحريض الأطفال في اللغة والعائلة والمجتمع من خلال الألم والعنف موضوعاً شائعاً طوال هذه الانتفاضة. ويثير مثل هذه القصص أسئلة عن الوظيفة الثقافية التي يؤديها تقديم الشهادات وتسجيلها في الصراعات السياسية العنيفة. وفي حين أن ذلك لا يصرف الانتباه، بأي حال من الأحوال، عن أهمية هذه الشهادات أو صدقيتها، يجب أن يذكرنا بأن نكون حريصين على تقديم القصة الحقيقية عن الضحايا "غير محوّرة". فالثقافة والسياسة تحوران دائماً مثل هذه التمثيلات.

يحتوي القسم الأخير من الكتاب على شهادات من مراقبين دوليين زاروا مخيم جنين، منهم الباحث نورمان فينكلشتاين، وناشطون من دعاة السلام، والصحافي الإسرائيلي أوري أفنيري. ويكرر كثير من مساهماتهم اللازمة المشتركة أنهم لا يستطيعون أن يعبروا بالكلمات عن "هول" ما شاهدوا. لكن كلاً منهم يضيف بشكل فعال في الواقع وجهات نظر جديدة فيما يتعلق بالأحداث. وهم يدينون الاحتلال: "أعتقد أن ذلك غير مقبول على الإطلاق، ولم يسمع من قبل أن قوة احتلال تبقى على منع التجول، وتبقى على معاناة أعداد كثيرة من السكان المدنيين يوماً بعد يوم. يجب أن يتوقف ذلك" (المبعوث الخاص للأمم المتحدة، تيري رود لارسن، ص 227)؛ أو يدحضون الخرافات المتعلقة بالصراع، بما في ذلك الادعاء الإسرائيلي الرسمي أن هذه العملية العسكرية نُفذت بطريقة إنسانية دفاعاً عن إسرائيل (ص 197). وتشمل الشهادات التي أدلى بها المراقبون الدوليون والمقيمون، على السواء، تفصيلات عن سلوك الجنود الإسرائيليين خلال الغزو: التغوُّط في المساجد، والكتابات الطفولية على الجُدُر، واستخدام لغة فاحشة، وأسوأ من ذلك.

إن الهدف المعلن لكتاب "تفتيش جنين" هو "إظهار الضحايا كما كانوا وكما هم عليه"، من دون تحليل. لكن كان يمكن أن يستفيد الكتاب من التاريخ الاجتماعي السياسي لفلسطين ومن الاحتلال الإسرائيلي والانتفاضة، وخصوصاً أن "تفتيش جنين" جزء من "سلسلة الجسر بين الحضارات" الصادرة عن دار "كيون برس". ومن دون هذه الخلفية يمكن أن يسيء الجمهور، الذي لا يألف السياق الذي وقعت فيه هذه

الأحداث، قراءة هذه القصص باعتبارها بعيدة الاحتمال بحيث لا تعدو كونها مبالغات، أو شديدة الفظاعة لا يمكن الاستجابة لها، أو مجرد وقائع من "الصراع الإثني" لا يمكن وقفها.

لا شك في أن كثيرين من القراء سيعترضون على تصوير الموقف "من جانب واحد"، إذ لا يضم الكتاب أي بيانات صادرة عن المتحدثين باسم الجيش الإسرائيلي، أو شهادات للجنود الإسرائيليين. لكن وجهات النظر الحكومية الإسرائيلية والصهيونية تجد قنوات أخرى للتعبير عنها بشكل متكرر ومناسب، وهدف "تفتيش جنين" هو توثيق وجهة نظر الشهود الفلسطينيين "الذين لا يستطيعون تضخيم أصواتهم بالمستوى نفسه" (ص 20). وكما يشير أفنيري، فإن بعض الوقائع لا يمكن دحضه من غير اعتبار لوجهة النظر: "خلال أسبوعين من القتال، لم يسمح الجيش الإسرائيلي لأي صحفي، إسرائيلياً كان أو أجنبياً، بدخول المخيم... والمنطق البسيط يقضي بأنه إذا منع أحدهم وصول الصحفيين بالقوة فذلك يعني أن لديه ما يخفيه... ولم يسمح لسيارات الإسعاف بالاقتراب في أثناء القتال وبعده... إن هذه لجريمة حرب" (ص 209).

يضم الكتاب ترتيباً زمنياً للأحداث التي أدت إلى الغزو، وصولاً إلى إعلان الأمين العام للأمم المتحدة، كوفي أنان، تقريره الفاتر بشكل مفرز في آب/أغسطس، والذي ينحي فيه باللائمة على كلا الطرفين للإصابات التي وقعت في جنين. كما يقدم مسرداً مفيداً كان يمكن أن يكون ذا فائدة أكبر لو أشير إلى الكلمات الواردة فيه في متن الكتاب. لكن على الرغم من هذه العيوب فإن "تفتيش جنين" يعتبر وثيقة قيمة تسلط الضوء على الأحداث المقلقة التي وقعت في نيسان/أبريل، من وجهة نظر الناس الذين عاشوها.

لوري أ. ألن

طالبة دراسات عليا

في جامعة شيكاغو

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>